الكرك في كتب الجغرافية والرحلة

أ.د عامر جاد اللّه أبو جبلة
قسم التاريخ – كلية العلوم الاجتماعية
جامعة مؤتة/ الأردن

خطة البحث:

أولا : تمهيد

ثانيـــا: الموقع الجغرافي ووصف المكان

ثالثـــاً: الحياة السياسية والإدارية

رابعـــاً: الحياة الاقتصادية

خامساً: الحياة الاجتماعية

سادساً: الخاتمة

سابعـاً: الهوامش

ملخص البحث

يتناول هذا البحث مدينة الكرك الأثرية والتاريخية في الأردن من حيث وصفها من قبل مصادرنا الجغرافيا العربية، والتي أشارت إليها كمدينة من المدن المهمة في شرق الأردن لموقعها وحصانتها وأهميتها في مراحل تاريخ الدول الإسلامية التي توالت عليها.. ولقد ساعد موقعها في تحديد معالم تاريخها وتأثيرها في الأحداث التي مرت بها.. فضلا عن أن كتب الرحلة والرحالة الذين زاروها أو مروا بها من مختلف الجنسيات كانوا قد أسهبوا في وصفها ووصف بيئتها وسكانها وقدموا لنا شرحًا تفصيليًا عن مدينة الكرك لا سيما الرحالة الأجانب الذين اهتموا بها كونها من المواقع الأثرية التي ترجع إلى فترة الحروب الصليبية .. وكون قلعة الكرك تعتبر من أكبر وأبرز الآثار التي مازالت شاهدة على كثير من الأحداث التاريخية البارزة في تاريخ شرقي الأردن.

ABSTRACT

"Al Karak in Geography and Travel Books"

Prepared by: Prof. Amer Jadallah Abu Jablah / Department of History / Faculty of Social Sciences / Mutah University / Jordan

This research deals with the city of al Karak, and its archaeological and historical position in Jordan as described by our Arab geographical sources, which referred to it as an important city in eastern Jordan for its location and immunity

And its importance in the stages of the history of the Islamic countries that have ruled over it, the site has helped in determining the parameters of its history and its impact on the events that have passed.

especially foreign travelers who are interested in it as one of the archaeological sites dating back to the period of the Crusades, and the fact that the castle of Karak is one of the largest and most prominent monuments that continue to witness many of the landmark historical events in the history of eastern Jordan.

أولا: تمهيد:

تشير التوراة إلى الكرك بمعنى المدينة الحصينة، أو القلعة المحصنة على تل، وفي اللغة الآرامية تعني المدينة المسوّرة، وكذلك اسم الكرك بالآرامية القلعة، أما بناؤها، فيعود أصل بناء قلعة الكرك إلى الملك المؤابي (ميشع) (٨٦٠-٨٥٠-م)[١].

وتدل التماثيل العائدة للفترة النبطية المكتشفة في القلعة أنها استخدمت زمن الأنباط، فضلاً عن أنها أدت دورها كحصن منيع في العصور المختلفة، الإغريقية، والرومانية، والبيزنطية، كما أشارت إليها خريطة الفسيفساء في مأدبا[٢].

أما في فترة الفتوحات الإسلامية فيذكر أن قائد جيوش المسلمين الفاتح أبو عبيدة عامر بين الجراح كان قد فتحها صلحاً[٣].

ويشار إلى أن حصن الكرك كان موجودًا ومستخدمًا زمن الفاطميين، قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، واتخاذهم لها حصناً ذلك أن الصليبيين سيطروا على الكرك سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، وكانت قلعة الكرك قائمة، وكل ما فعله الفرنج أنهم زادوا في إعمارها وتحصيناتها [٤]. وتم تحريرها زمن الأيوبيين على يد العادل أخي صلاح الدين في عام ٥٨٤هـ/١١٨٩م، بعد حصار دام سنة ونصف تقريبًا[٥]. وتقع قلعة الكرك في الجهة الجنوبية الغربية من القصبة، ويفصلها خندق حفر في الصخر، ويبلغ طولها من الجهة الشرقية ٢٢٠م،

١- يوسف غوانمة، الكرك في عصرها الذهبي، مطبعة القيروان، عمان ٢٠٠٧م ص٢، وإمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر،ط٢، عمان ،١٩٨٢م، ص٤٥-٥١.

٢- انظر: يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، ط٢، عمان، ١٩٨٢، ص٢٦٠

٣- البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٣

٤- يوسف غوانمة، الكرك في عصرها الذهبي، ص٢

٥- المرجع نفسه، ص٤، وانظر: أحمد الحسو، الكرك عبر العصور، تاريخ الكرك في العصور الإسلامية، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٥م، ص٤٢-٤٣

ومن الجهة الغربية ٢٤٠م ومن الجهة الجنوبية ٩٠م، أما من الشمال فيبلغ ١٣٥م، ويحيط بالقلعة سور تتخلله عدة أبراج تتخذ أشكالاً مربعة، وأسطوانية، وتكثر منافذ السهام على امتداد السور والأبراج، وتحتوي القلعة من الداخل على منشآت عديدة لأغراض عسكرية واستراتيجية، ويذكر أن بعض أجزاء القلعة كانت قد تعرضت إلى الخراب في عام ١٢٥٠هـ /١٨٣٤م، عندما طارد إبراهيم باشا، الشيخ قاسم الأحمد زعيم نابلس، الذي كان قد لجأ إلى قلعة الكرك ليحتمي بها، وعندما دخلت الدولة العثمانية إلى قصبة الكرك سنة ١٣١١هـ /١٨٩٣م جعلتها مركزاً للمتصرفية العثمانية، فأزالت الأنقاض والأتربة المتراكمة في القلعة، واتخذتها ثكنة عسكرية للجند، ومخزنا للمؤن، وقد ذكر الرحالة الإنجليزي "داولنج" الذي زار قلعة الكرك سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م أن عدد أفراد الحامية التركية المرابطة في القلعة كان نحو ١٤٠٠ جندي، وارتفع هذا العدد في القرن العشرين قبل بداية الحرب العالمية الأولى إلى ٢٠٠٠ جندي من المشاة و ٢١٥ من الفرسان[٦].

ثانيا: الموقع الجغرافي ووصف المكان:

اهتم الجغرافيون العرب والرحالة بوصف موقع الكرك ووصف قلعتها، ووصف المكان كل حسب مشاهداته، أو ما نقله عمن سلفه من المختصين والمهتمين بهذا المكان، فهذا المقدسي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) ذكر في كتابه أحسن التقاسيم، بعض الأماكن في منطقة الكرك فأشار إلى مآب، وقال عنها "مآب من الجبل .. وذكر مؤتة بأنها تضم قبري جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة"[٧]. أما البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) في كتابه "معجم ما استعجم" فيشير إلى مؤتة بأنها موضع من أرض الشام من عمل البلقاء[٨].

٦- محمد سالم الطراونة، الحياة الاجتماعية في لواء الكرك (١٣١١-١١٣٧هـ/١٨٩٣-١٩١٨م)، جامعة مؤتة، ٢٠١٠م، ص٢٥.

٧- المقدسي، محمد بن أحمد (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٣٦ -١٥١.

٨- البكري، أبو عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) معجم ما استعجم، ص٩.

ويذكر ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في كتابه "معجم البلدان" الكرك، بأنها اسملقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء، في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهو على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض[٩].

وذكرها ياقوت الحموي في موضع آخر من كتابه "المشترك وضعاً" بأنها: قلعة مشهورة حصينة من طرف البلقاء من أرض الشام، من ناحية جبل الشراة [١٠].

كما ذكر شيخ الربوة (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" بأنها: " مملكة الكرك، وهو حصن منيع عالٍ على قمة جبل خندقه أودية بعيدة السفل (المنحدر) ويقال إنه كان ديراً للروم فبُني حصناً، ومن جنده الشوبك"[١١].

ثم ذكر الكرك أبو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) في كتابه "تقويم البلدان" قال: "الكرك من البلقاء، وهو بلد مشهور، وله حصن عالي المكان وهو أحد المعاقل بالشام التي لاتزام، وعلى بعد مرحلة من مؤتة وبها قبر جعفر الطيار، وأصحابه رضي الله عنهم" وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز، وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل" [١٢] وقال البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) في كتابه " مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع" إن الكرك قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، قال: بين أيله وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على جبل عالٍ"[١٣].

٩- ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، ٥ج، دار صادر، بيروت، ج٤، ص٤٥٣.

١٠- المؤلف نفسه، المشترك وضعا والمعترف صقعا، جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٦م، ص٣٧١.

١١- شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت) ص٢١٣، وانظر:المهدي عيد الرواضية، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، ص٣٢٩

١٢- أبو الفداء، إسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) تقويم البلدان، صححه جوزيف توسن رينود، ومالك كوين ويسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص٢٤٦-٢٤٧، وانظر: المهدي عيد الروايضة، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، ص ٣٢٩.

١٣- البغدادي، عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ج، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤، ج ٣ ص١١٥٩، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٢٩.

ويشير ابن فضل الله العمري(٧٢٧هـ/١٣٣٨م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمطار" إلى الكرك؛ إذ قال: "الكرك مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك، والشوبك أقدم منها، والكرك مدينة محدثة البناء، كان يديرها الرهبان ثم كثروا فكبروا بناءه، وكثروا أبناءه، وأوت إليه الفرنج (الصليبيين) فأدارت أسواره، فصارت مدينة مشهورة فبنوا حصنه فكانت قلعة، فاستولى عليها الفرنج. وهو حصن في مكان صعب المرتقى، قد زاحم الشعرى العبور بمناكبه..."[١٤].

كما ذكر ابن الوردي (ت٧٤٩هـ-١٣٤٨م) في كتابه "جريدة العجائب وفريدة الغرائب"، الكرك من جملة بلاد الشام على أن قلعتها(قلعة الكرك) أمنع قلعة فيها، قال عن الشام:" وهو يشمل ثلاثين قلعة وليس فيها أمنع من قلعة الكرك" [١٥].

ويشير الحميري (ت٨هـ/ق١٤م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى الكرك، قال: "حصن مشهور، ومعقل مشهور"، كما إنه يذكر أن هذا الحصن استعمله النصارى (الفرنج). وقال: وهو أعظم حصون النصارى معترض في الطريق للحجاز .. وله نظر عظيم الاتساع، متصل العمارة ينتهي إلى أربعمائة قرية" [١٦].

١٤- ابن فضل الله العمري(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمطار، تحقيق كرويتا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦، ص٢١٢-٢١٣، وانظر: المهدي عيد الرواضية مرجع سابق ص٣٣٠.

١٥- ابن الوردي، سراج الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) فريدة العجائب وفريدة الغرائب، المكتبة الشعبية، بيروت، (د.ن) ص٣٧، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣١.

١٦- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ق ٨هـ/ق ١٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٤٩٣، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣١-٣٣٢.

أما ابن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" فيقول: "هي مملكة بمفردها وتسمى مآب، وهي مدينة حصينة، معقل من معاقل الإسلام، وبها قلعة ليس لها نظير في الإسلام ولا في الكفر، تسمى حصن الغراب... وبها قرى كثيرة ومعاملات والمسلك إليها صعب وبها المزارات والأماكن الشريفة، مكان جعفر الطيار، وقبر زيد بين حارثة، وقبر عبدالله بن رواحة، وقبر حارث بن النعمان، وقبر زيد بن الأرقم، وقبر زيد بن الخطاب وعبدالله بن سهل، رضي الله عنهم استشهدوا في غزوة مؤتة، وقبر عبدالله بن المبارك[١٧].

وقال ابن شاهين أيضًا: "إن الكرك يمكن رؤيتها من القدس الشريفة، وبالقدس الشريف مصطبة على سطح الصخرة يُرى منها قلعة الكرك"، كما ذكر المحطات الواصلة ما بين دمشق والكرك[١٨]

أما كتب الرحلة العربية فساهمت بدورها في ذكر الكرك وقلعتها، فهذا الرحالة ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، ذكر الكرك وقلعتها على السماع لا المشاهدة، وذلك في رحلته المشهورة فقال "وهو المعترض في طريق الحجاز، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق (أقل) قليلاً، وله نظر عظيم الاتساع ، ويذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية"[١٩].

١٧- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمالك، صححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م، ص٤٣.

١٨- المصدر نفسه، ص١١٧،٢٣،١٢.

١٩- ابن جبير، محمد أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت (د.ت) ص٢٦٠، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣٤.

وكانت الرحلة العربية الثانية قد تمثلت في رحلة ابن بطوطة سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) والمعروفة ب "تحفة النظار"، كان ابن بطوطة قد مرّ بالكرك مرافقاً للركب الشامي المتوجهة إلى الحج في شوال من سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، فوصف قلعة الكرك، إذ قال: " ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويسمى حصن الغراب، والوادي يطوف به من جميع جهاته وله باب واحد، قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك، وبهذا الحصن يتحصن الملوك" [٢٠].

أما الرحلة العربية الثالثة، فكانت رحلة البلوي (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) الذي مرَّ بالكرك سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، ووصفها في كتابه "تابع المفرق في تحليل علماء المشرق"، وكان في طريقه من بيت المقدس إلى مكة، قال: "وسرنا إلى أن وافينا مدينة الكرك المحروسة العليا، التي هي أمنع معقل في الدنيا، فوصلنا إليها في ضحوة الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، قد رأيت مدينة عظيمة الجرم، سامية الرسم، كأنها على مرتقب النجم يحصر دونها حوض الغمام.... متناهية في الحصانة، موصوفة بالوثاقة، ممتنعة عن الطلب والطلاب... منصوبة على أصعب المسائل، وأوعر المناصب، صماء على الراقي، عالية المرتقى، نائية للمراقب، لم تزدها الأيام إلا بنو أعطاف واستصعاب جوانب وأطراف، فهو حمى لا يراع، ومعقل لا يستطاع، كأن الأيام صافحتها على الإعفاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع، ضخمة المأوى رحبة المثوى، معشوقة السكنى، رائعة المغنى:

تحسبُ النجمَ في دُجى اللّيلِ زهراً .... في رُباها وتحسبُ الزَّهرَ نجماً

٢٠- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي (ن٧٧٩هـ/١٣٧٧)، تحفة النظار، تحقيق: عبدالهادي التازي، ٥ج، الأكاديمية المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٤٤-٣٤٦، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

قد ساوت الفرقد بالوهاد والنجد، وفتحت أبوابها أنقابا في وسط الحجر الصّلد، والعجب كل العجب أنها على بعد مرقاها، وسمو مرتقاها، قد انبعث في أعلاها الثمار، وتفجرت منها العيون والأنهار، فكلما هب فيها النسيم غردت الأطيار.." وأضاف: "فنزلنا بخارجها (الكرك) في الثنية العلية، وقد وصل بوصولنا المحمل الدمشقي والمركب الحلبي، وتألفت هناك ركبان الشام، وأعدّت عدة السير لزيارة أفضل الأنام عليه أتم الصلاة والسلام"[٢١].

وكانت الرحلة العربية الرابعة هي رحلة صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ذكر الكرك في رحلته للحج سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، قال: ثم يرحل (يقصد ركب الحجاج) إلى الكرك، فيأخذ إليه في خمس مراحل، ويقيم في ظاهره على مكان يعرف بالثنية ثلاثة أيام أو أربعة" [٢٢].

كما ساهمت كتب الرحلة الأجنبية في وصف موقع الكرك الجغرافي، ووصف المكان بعامة، ذلك أن هذه الرحلات التي جاءت إلى المنطقة منذ بداية ق ١٩م كانت قد جاءت بسبب اهتمام الأجانب بالأراضي المقدسة، وتطلعاتهم الدينية[٢٣]،فكان الرحالة الألماني سيتزن (Seetezen) الذي تجول في الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م، قادمًا من مأدبا، وقد دوّن مذكراته ومشاهداته عن المنطقة، حيث زار سيتزن قرى الكرك العامرة ومواقعها الأثرية... وذكر

٢١- البلوي ، خالد بن عيسى بن أحمد الأندلسي (تبعد ٧٦٧هـ/١٣٦٥م) تاج المفرق في تحلية علماء الشرق، تحقيق : الحسن السائح، ٢ج، الرباط، (د.ت) ط١، ص٢٢٧-٢٧٧، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢٢- انظر: الجزيري، عبد القادر الحنبلي (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، ط١،بيروت، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٢٥٧م، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣٦.

٢٣- السوارية، نوفان رجا، كتب الرحالة الأوروبيين عن فلسطين والأردن، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية) الجامعة الأردنية، م١٣،١٩٨٦، ص٢٠٧-٢١٤.

القرى المهجورة والمدمرة والخراب، فقد ذكر سيتزن أنه يوجد في منطقة الكرك أكثر من (٤٠) قرية مدمرة، وعدد القرى القديمة يتجاوز (٣٤) قرية، ويعلق سيتزن على ذلك بأن ذلك يدل على الانتعاش العظيم الذي شهدته منطقة الكرك في الماضي[٢٤].

وقد ذكر من هذه المواقع: الثنية، وراكين، واللجون، وبتير، والسيرة، وقريفلة، وشيحان، والقطرانة[٢٥]، وذات راس، ومؤته، وأريحا، وعزرا، وبذان، وحميمات، والبالوع، وبيت كروم، والياروت، ومجدولين، مع أنه مرّ فقط بالمناطق التالية، المحطة، وأريحا، والبالوع، وحميمات، وبيت كروم، والربة، والياروت، وقريفلة، والكرك[٢٦].

ولم يغفل سيتزن وصف طبيعة المنطقة الكرك الممتدة بين وادي الحسا ووادي الموجب، وأشار إلى مجموعة الأودية التي تجري خلالها من الشرق باتجاه البحر الميت ومن أشهرها وادي الحسا، ووادي الكرك، ووادي ابن حمّاد، ووادي الموجب، وأشار إلى ينابيع المياه المتدفقة في هذه الأودية وإلى الجهة الغربية من سلسلة جبال مؤاب، التي تتصف بانحدارها الشديد من الجهة الغربية نحو البحر الميت[٢٧].

ويصف سيتزن مدينة الكرك بأنها تقع على مرتفع من الأرض تحيط به الأودية من كل جانب، قال "إن الكرك تشبه السلط من بعيد، وإنها لعلوها تمكن المشاهد في الجو الصافي أن يرى

٢٤- محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحديث)، ٩٢٢-١٣٣٩هـ/١٥١٦-١٩٢١١م)، ص٢٠٤.
٢٥- المرجع السابق نفسه، ص٤١.
٢٦- المرجع نفسه، ص٤٢.
٢٧- المرجع نفسه، ص٤٣.

القدس وما حولها، وقد وصف المنطقة المحيطة بها، ذاكراً أنها من جهتها اليمنى جافّة وذات صخور رسوبية وبركانية([٢٨]).

وبعد سبع سنوات من رحلة سيتزن زار منطقة الكرك الرحالة السويسري يوهان لوديغ بيركهارت (١١٩٩-١٢٣٢هـ/١٧٨٤-١٨١٧م)، وقد تميز بدقة الملاحظة والمعرفة بتاريخ المنطقة، حيث بدأ بيركهارت في وصفه للمنطقة التي مر بها أثناء زيارته للكرك ما بين ٤ تموز – ٦ آب ١٨١٢م بالتعريف الجغرافي الدقيق لمعالم الأرض، من جبال وأودية وهضاب، ومنخفضات وسهول، واصفاً نوع التربة، وخصائصها، فكانت زيارته للمنطقة في فصل الصيف الجاف، ذاكراً ما فيها من مواقع أثرية وخرائب قديمة، معتمداً على أسمائها التي وردت في كتاب العهد القديم (التوراة) التي اطلع عليها أثناء دراسته مسترشداً بالخرائط القديمة وبكتب الرحالة الذين سبقوه وبخاصة سيتزن الذي يصفه بقوله: " هو الرحالة الوحيد الذي لا يعرف الكلل ولا الملل من بين كل الرحالة الذين زاروا سوريا في أي وقت مضى". وبعد أن يستكمل بيركهارت الوصف الجغرافي والعمراني للمنطقة يدوّن معلوماته عن جوانب الحياة الأخرى في الكرك([٢٩]).

أما مسار رحلة بيركهارت في منطقة الكرك، فقد جاء إلى منطقة الكرك قادماً من مأدبا عن طريق وادي الموجب صاعدًا نحو منطقة الكرك من الجهة الشمالية مارّاً بجبل شيحان متجهاً نحو الرّبة ثم إلى خرائب بيت كرم وحميمات ثم إلى مدينة الكرك فوادي الفرنج ثم إلى كثربا وخنزيرا مارّاً بقرية العراق، ومن خلال استعراض الجدول الزمني لرحلة بيركهارت فإنه أمضى ثلاثة أسابيع متواصلة في مدينة الكرك من٥تموز –٤ آب ١٨١٢م، وأن ما أمضاه في بقية المناطق لا يتجاوز

٢٨- المرجع نفسه، ص٤٤.

٢٩- رحلات بيركهارت، ج٢، ص١١٢، وانظر، الطراونة، مرجع سابق، ص٤٤.

أسبوعين ولم يقم بزيارة منطقة الأغوار أو الأجزاء الجنوبية من منطقة الكرك، وفي بداية رحلته وصف بيركهارت وادي الموجب أو أرنون كما ورد في الكتاب المقدس، متتبعاً مجراه من المنبع حتى المصب ذاكراً الأودية التي ترفده والأسماء التي يحملها أثناء سيره نحو البحر الميت، فهو ينبع من قرب القطرانة، وترفده أودية اللجون والنخيلة والبالوع والمخرير، وصليحة، ولا يكتفي بوصف الجريان بل يصف التربة وأنواع الحجارة[٣٠].

ثم ينتقل بيركهارت إلى وصف معالم الهضبة في شمال الكرك حيث يرتفع جبل شيحان كأعلى قمة، وتمتد سلسلة منخفضة من الجبال من الشمال إلى الشرق تدعى الغيطة، وإلى الجنوب من الغيطة تبدأ سلسلة جبال منخفضة تدعى الطرفوية، حتى تتصل بسلسلة أخرى تدعى عراقية، وبعد هذه السلسة تمتد سهول مستوية خصبة [٣١].

ويذكر بيركهارت أن مدينة الكرك مبنية على قمة جبل شديد الانحدار محاط من جميع جوانبه بأودية سحيقة، وعلى الجانبين الغربي والشمالي توجد ينابيع غزيرة أشهرها عين سارة وتوجد عدة أودية تنحدر من جبال الكرك إلى السهل الواقع على ساحل البحر الميت، ومن هذه الأودية سيل الجرة، ووادي ابن حمّاد، حيث توجد ينابيع ساخنة، وقد توهم بيركهارت حين ظن أن هذا الوادي هو نهر زارد المذكور في الكتاب المقدس [٣٢]. فمن المتعارف عليه أن نهر زارد هو وادي

٣٠- المرجع نفسه،ج٢ ص٩٧-١٠١.
٣١- المرجع نفسه، ج٢ ص١٠٠.
٣٢- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٢.

الحسا[٣٣]. ومن الأودية سيل الكرك، ووادي الذراع، وسيل عسال، والنميرة، ووادي خنزير، ووادي الحسا، وهو نهر يفصل منطقة الكرك عن منطقة جبال يقصدبها الطفيلة [٣٤].

أما منطقة الغور التابعة للكرك فيذكر بيركهارت أنّه لم يتسنّ له زيارتها كما فعل سيتزن، ولذلك جاء الوصف الجغرافي لها عند بيركهارت مقتضباً ومقصوراً على وصف الساحل الواقع بين الجبال وشاطئ البحر الميت، وضيقه واتساعه وصلاحيته للزراعة في الأجزاء الجنوبية منه، التي وصفها اعتماداً على معلومات استقاها من آخرين أو قرأها في كتب من سبقوه[٣٥].

أما وصفه للمنطقة التي مرَّ بها أثناء خروجه من الكرك متجها إلى كثربا، فقد ذكر أنه مرَّ بعين الفرنج، وعين ترعين، وتمكن من مشاهدة البحر الميت من الجبال المطلّة على هذه العيون، ويصف قرية كثربا بأنها تضم حوالي ثمانين بيتا.... ويصف المنطقة بين كثربا وقرية العراق بأنها برية قاحلة تتخللها عدة أودية، ويذكر أن قرية العراق بحجم قرية كثربا تماماً، ويصف موقعها بأنها تقع في مكان فاتن، وأنها مبنية على سفح شيار عمودي مرتفع تتحدر منه جداول باتجاه الوادي للأسفل[٣٦].

أما قرية خنزيرا فيذكر بيركهارت أنها أكبر من قريتي العراق وكثربا، وقال:"إن قرية خنزيرا مدينة مبنية على منحدر جبل أعلى الجبال الواقعة على الجانب الشرقي للبحر الميت [٣٧]. وقصد جبل ضباب الذي يرتفع ما يزيد عن ١٣٠٠م عن سطح البحر [٣٨]. وذكر بيركهارت الكثير من الخرائب

٣٣- المرجع نفسه،ج٢ ص١١٢.
٣٤- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٢.
٣٥- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٢.
٣٦- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٧.
٣٧- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٧.
٣٨- المرجع نفسه، ج٢ ص١١٧.

القديمة في منطقة الكرك ومنها: فارس، وشيحان، وبيت كرم، والرَّبة، وأدر، والبالوع، ومؤتة، وجلجول، وكفيراز، وذات راس، ومجدلين، والياروت، والمريغة، وأمرع، وجحفة، وحميمات، وتدون[٣٩].

أما وليم فرانسيس لينش قائد البعثة الأمريكية في المنطقة لدراسة البحر الميت ومحيطه، فلقد زار منطقة الكرك في عام ١٨٤٨م، ونُشرت نتائج رحلته في كتاب عنوانه "رحلات في الأردن وفلسطين" ومن جملة ما ذكره عن منطقة الكرك وصفه لغور المزرعة [٤٠]. حيث تابع سيره إلى الكرك من خلال وادي الكرك، قال: "سرنا مصعدين في وادي الكرك، وكان المنظر أروع ما شاهدت عيوننا، وبعد مسافة شاهدنا قطع أرض مزروعة... وأخيرًا وصلنا إلى السور ثم إلى بوابة نحتت في الصخر[٤١].

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا الكرك في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، هـ.ب.تريسترام الذي زار الكرك في عام ١٨٧٢م، ونشرت رحلته هذه في كتاب عنوانه: "رحلات في شرق الأردن"، وكان بدأ رحلته هذه من غور الصافي ثم عبر الكرك وقراها، ثم قرى شيحان وإلى وادي الموجب شمال الكرك، وذكر أن طريقهم ومسيرهم نحو الكرك باتجاه الطرف الجنوبي لوادي الكرك، وقال: "عندما صعدنا إلى أعلى بدأ الوادي يتسع، فشاهدنا هنا وهناك عدداً من بيوت البدو التي ظهرت من بعيد، وكأنها بقع سوداء في السفوح الجبلية، ورأينا الكرك تشمخ أمامنا بجدرانها وقلعتها القوية الرائعة، حيث إنّ الجهة الجنوبية منها كانت ذات أهمية كبرى، ولكي تصل إلى المدينة كان يتعين علينا أن ننحدر إلى الوادي لنصعد بعد ذلك الطور الصخري الذي تتربع على قمته هذه المدينة، واستغرق مسيرنا هذا ساعة بدءًا من جدول الماء لنصل في نهايتها إلى المدخل المؤدي إلى الكرك، والذي هو عبارة عن ممر ضيق على طول جوانب الانحدار الممزق، وكان رغم ضيقه مزروعا بالجلاميد الصخرية، بالإضافة إلى أنه منحدر للغاية، حتى إنه في بعض الأحيان يصبح من الصعوبة البالغة أن تمر خيولنا عبره، وعندما اقتربنا من قمة هذا القمع المخروطي انعطف فجأة في

٣٩- المرجع نفسه، ج٢ ص١١١.

٤٠- دائرة الثقافة والفنون، رحلات في الأردن وفلسطين، وليم لينش (١٨٠١-١٨٦٥م) قائد البعثة الأمريكية لدراسة البحر الميت ومحيطه، ط١، عمان، ١٩٨٧، ص٩٠، ٩١

٤١- المرجع نفسه،ص٩٤-٩٥..

نفق مسقوف بالأقواس الحجرية فسرنا وسط ارتباك وتعثر عبر الظلام لمسافة تبلغ حوالي ثمانين ياردة، ظهرنا بعدها إلى المساحة المفتوحة داخل سوق الكرك(٤٢).

وأشار تريسترام إلى الكرك أيضًا، قال: " فموقعها قوي للغاية بشكل طبيعي إلى درجة أنها كانت مكان قلعة بنيت عليها منذ الأزمنة الغابرة، فهناك حاجب صخري شامخ يندفع باتجاه الغرب، تعلو قمته مساحة مسطحة، حتى ليبدو الموقع على شكل رأس تقع عنقه في المضيق الجنوبي الشرقي، مما يعطيه شكل شبه الجزيرة، في وقت ينحدر البرزخ – إذا جازت التسمية – بشكل متدهور سريع على الجوانب قبل أن يبدأ بالارتفاع ثانية ليتوحد مرة أخرى مجتمعاً في تل شامخ يقع إلى الشرق من برزخ القلعة، ويرتفع موقع الكرك ٣٧٢٠ قدم عن سطح البحر، ومع هذا فهي محاطة بمرتفعات أخرى يصل ارتفاعها إلى أربعة آلاف وخمسين ٤٠٥٠ قدم.. وبدت الأرض لنا قاسية وصعبة في كل مكان حولنا ما عدا العنق، كما كانت تبدو بدرجة أقل قساوة في الجهة الشمالية الغربية، وهناك واديان عميقان يبلغ عمق كل منها ١٠٠٠–١٣٥٠ قدم وهي ذات جوانب حادة الارتفاع، وأخرى ذات شكل مهلهل ممزق ألا وهما وادي حماد في الجنوب ووادي الكرك في الشمال، واللذان يلتقيان ويتحدان على مسافة ميل غربي المدينة يشكّل تلاقيهما المجرى الذي سلكناه في طريقنا إلى الكرك، أما الضلع الثالث للمثلث فهو وادي كبيشه الذي ينطلق من المنخفض الذي سميته العنق حيث ينحدر مسرعا نحو وادي الكرك.(٤٣) كما وصف القلعة وأجزاءها ومكوناتها وأبراجها والعهود التي مرت بها من خلال الإضافات على بناء هذه القلعة(٤٤).

٤٢- هـ.ب. تريسترام، رحلات في شرق الأردن، ترجمة أحمد عويدي العبادي، الدار العربية للنشر والتوزيع، وزارة الإعلام والثقافة، ط١، عمان، ١٩٨٧م، ص٧٥– ٧٦.

٤٣- المرجع نفسه، ص٧٧–٧٨.

٤٤- المرجع نفسه، ص٧٨–٨٤.

وتجول تريسترام في ربوع مناطق الكرك المحيطة بها، قال: " وصلنا إلى السهول الجبلية فوق مرتفعات مؤاب، حيث اعتلينا القمة التي تبدو من الجانب الآخر سلسلة جبلية، والتي هي في الحقيقة لا تتجاوز كونها سهلاً عالياً يشمخ بمقدار ٤٠٠٠ قدم فوق البحر الميت، والذي يرفع بلطف واتساق نحو الشرق لمسافة خمسة وعشرين ميلا تقريبا أما مسيلات الأودية المتجهة نحو الغرب والتي بدت لنا لدى صعودنا من عند البحر الميت بأنها غنية الملامح والسمات، فقد وجدناها لا تتعدى أن تكون أكثر وديان لطيفة تفصلها تلال جبلية مطوية خالية من الانحدار، وعندما يكون حجر الليموستوني أعلى من التربة الزراعية الخصبة، فإننا نجد الكثير من الكهوف المحفورة تحتها، المستخدمة كآبار لتجميع المياه(٤٥).

ثم توجه تريسترامنحو الجنوب الغربي للكرك انطلاقاً من "كريتن"، حيث انتهى إلى قمة ربوة من الأطلال تدعى "خربة عزيزة"، حيث توجد بقايا كثيرة منها مع وجود عدد كبير من الأودية ولدى تتبعه للآثار القديمة، وعلامات الأيام الغابرة، وجد معصرة حجر محفورة في الصخر(٤٦).

كما مرَّ تريسترام بمؤتة وذكر أنه يرقد إلى جانبها ضريح الشهيد جعفر بن أبي طالب، وقبره طويل بني عليه قبة تقوم فوق أعمدة، وبعد مسير نصف ساعة ركباناً وصلوا إلى وادٍ ضيق حيث سلكوا فيه طريقًا وعرًا أدى بهم إلى بئر عميق يدعى بئر مدين ومن خلفه مدينة قديمة، تقوم على سفح الجبل المحاذي وقمته، وقال: "وجدنا بئر مدين كهفًا طبيعيًّا بعمق عدة أقدام، ويبدو أنه يتغذى من نبع حار تحت الأرض، ونزلنا عبر درجات إلى قعر البئر، ووجدنا بئرين آخرين في نفس الوادي، وبالقرب من فتحات أبواب الآبار شاهدنا عددًا من الأحواض الصخرية المنحوتة

٤٥- المرجع نفسه، ص١٠٢-١٠٣.

٤٦- المرجع نفسه، ص١٠٤.

على شكل تابوت، ووجدنا فيها ماء استقينا منه خيولنا، يبدو أن بعض المسافرين قد تركوها لمن بعدهم، بعد أن سحبوا الماء[٤٧].

ثم واصل تريسترام سيره شمالاً وقال: "وسرنا خمس عشرة دقيقة وسط أرض وعرة، وصلنا بعدها إلى خرائب مدين على قمة تله حيث تمتد على سهل يتربع قمة الجبل، وذلك ما يجعلها تختلف عن سائر المدن القديمة الأخرى ... وبدا لنا أننا تركنا السهل المستوى الذي يمتد بعيدًا في الشرق والجنوب، بينما نجد أنفسنا في الجهة الغربية ندخل التلال مرة أخرى، حيث توجد قلعة الكرك التي تعتبر مفتاحها جميعاً من الغرب، ووجدنا الآثار كثيرة وفي حالة جيدة ... فهناك حجارة مربعة ذات أحجام كبيرة بينما لا تزال العديد من الحيطان تقف على نفس ارتفاعها الذي أشيدت به غابر الأزمان، لقد رأيت عدداً من التوابيت ملقاة هنا وهناك، استخدم أحدها كعتبة لباب قديم، كما توجد عدد من بقايا النصوص الرومانية المبعثرة، ومعصرة زيتون مكسورة، وعندما نظرنا إلى الشمال شاهدنا جبل شيحان يقف بوضوح وهو يسد الأفق الشمالي... واستغرقت رحلة العودة من مدين إلى الثنية زهاء ساعة ركباناً، وساعة أخرى من الثنية إلى الكرك"[٤٨].

ومرَّ تريسترام في الطريق إلى الرّبة، حيث مرَّ بعدد من الخرب عددها أربعة منها راكين، ولقد أعطى رأيه في أن المدن في جنوب الكرك أكثر منها في الشمال؛ لأنه يعتقد أن طبيعة المنطقة الجنوبية كونها عبارة عن تلال أو ربوات صخرية تساعد على حفر الآبار لجمع المياه، ولذلك فضل أهل هذه المناطق الاستقرار في مواقع يتوفر فيها تخزين المياه بشكل لا حدود له[٤٩].

٤٧- المرجع نفسه، ص١٠٦.

٤٨- المرجع نفسه، ص١٠٧.

٤٩- المرجع نفسه، ص١١٠.

وفي طريقه إلى الربة أيضاً يشير تريسترام إلى مشاهدته للطريق الروماني الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، حيث لم تزل رصفته موجودة قائمة رغم أنها معطوبة في بعض المواقع، حيث أزيحت حجارة الرصيف إلى الجوانب بفعل الزمن والمطر بينما لا تزال الجوانب قائمة على جناحيها (جناحي الطريق) وسرنا فوق شارع معبّد مهشّم، ويشير إلى الربة بأنها قريبة من الحدود الشمالية لبلاد مؤاب تلك الحدود المنتهية بوادي أرنون (الموجب) وأنه لا توجد آثار لمدينة ذات أهمية بينها وبين نهر الموجب، ولقد وجدنا مادة غزيرة في الرّبة لدرجة تستحق الاستكشاف، لقد بدا من مكان المدينة مربع يشقه الطريق الروماني إلى قطاعين من الشمال إلى الجنوب، ولا تزال آثار الشارع الرئيس موجودة والرّبة تحمل جميع علامات المدينة الرمانية المتأخرة مع توفر الكثير من معالم آثار الحقب السابقة(٥٠).

ويفصّل تريسترام حديثهُ عن الرّبة فذكرها بقوله: ويبلغ طول المدينة الرومانية مقدار ثلاثة أرباع الميل لكل جهة، وشاهدنا العديد من التلال الاصطناعية التي تدل على وجود أضرحة وبنايات مطموسة بالتراب عليها الأعشاب وهي تستحق الحفريات، ويوجد أيضًا معبد يبرز منه عمودان من الطراز الكورنثي وأجزاء أخرى فيها قوسان، وهناك بركتان مفتوحتان واسعتان، وأما ما تبقى من المدينة فهو كومة من الجدران المهدّمة، وقد تناثرت هنا وهناك أجزاء من الحجارة المنحوتة وتوابيت مكسورة وجدران من الحجر البازلتي وقناطر وأقبية قوسيه من جميع الأحجام التي لا زال بعضها يستخدمه العرب حظائر لمواشيهم ومهاجع لنومهم، ومخازن لمنتجاتهم، كما توجد في بعضها أعداد لا تحصى من الحمام البرّي، أما القناطر فلا حصر لها لكثرتها، ويبدو أن الرومان قد استخدموا حجارة كانت في صروح أبنية ضخمة أخرى بناها أقوام سبقوهم، أما مادة المدينة، فهي من الليموستون، ووجدنا عددًا من الواجهات المبنية من الحجر الناري والذي لا بد أنه

٥٠- المرجع نفسه، ص١١٠-١١١-١١٢.

جيء به من جبل شيحان الذي يبعد عن الرّبة عدة أميال، وقد تم استخدام هذا الحجر الناري في الجدران والأقواس معا، حيث كان بعضها مشذباً بنعومة بينما البعض الآخر منحوتاً بشكل مقوّس، والتي تدل على وجود مدينة مؤابيه تتقدم زمناً على الرومانية، ومن بين هذه المجموعات البازلتية تشاهد شرائم من العوارض المرتكزة على أعمدة قائمة كما إن عددًا من التوابيت منحوت من البازلت أيضًا، ولكن دونما أية زينة نحتية، وفي النهاية الشرقية للمدينة تجثم بقايا بنايات مربعة، حيث يبرز صف من الأعمدة تحيط بساحة مركزية دائرية قد تكون موقعا لقصر العدل(٥١).

ويشمل قصر الرّبة على معبد رائع ضخم، ولا يوجد حوله من آثار البنايات الأخرى إلا بقايا خافتة ويبدو واضحاً أنه (المعبد) يقف وحده، وملحق به عدة عنابر لتجمع الحضور فيها، أما سور الحصن فمبني من حجارة مربعة يبلغ طول بعضها ٦ قدم X ٣ قدم، والسور محبوك بسلسلة من بقايا الأعمدة التي لم يقع منها أي عمود وهي ذات طابع كورنثي(٥٢).

وذكر تريسترام وصوله إلى جبل شيحان شمالاً وقال:" على مدى جميع سفوحه الجنوبية شاهدنا أعداداً لا تحصى من الحظائر المحاطة بسلاسل حجرية من حجر البازلت الذي اختير بعناية فائقة، وتغطي بقايا الكروم عددًا من الهكتارات، والتي تدل على أن مدينة شيحان كانت ذات مدى واسع عظيم(٥٣).

وأضاف: ربما يجوز لي الاجتهاد في أن قلعة البلدة القديمة ومركز حمايتها هي التي جاءت على شكل بناية تتربع على قمة التله مبنية من حجر الليموستون الذي يخالطه تناثر الحطام والبقايا بما يشير إلى أكثر من عصر تتابع على هذه المكان ولنفس غاية الحماية والدفاع، في هذه القلعة

٥١- المرجع نفسه، ص١١٢.

٥٢- المرجع نفسه، ص١١٩.

٥٣- المرجع نفسه، ص١٢٢.

وجدت بقايا معبد روماني وأسطوانات أعمدة حجرية مكسرة متناثرة وأعمدة أيونية، وعدداً من الآبار الواسعة العميقة التي لم تزل مقصورة بالشيد حتى الآن، وبطريقة متقنة، ويوجد بئران منها كانا في الأصل مغائر تم توسيعهما واستغلالهما، هذا بالإضافة إلى آبار أخرى عميقة ليست مقصورة بالكامل. وتستخدم قبيلة بني حميدة هذا الموقع كمقابر كما وصف المكان بأنه بالإمكان رؤية البحر الميت والقدس وبيت لحم وصدع وادي الموجب الذي يستمر حتى البحر الميت[٥٤].

كما وصف تريسترام المناطق الواقعة نحو الشمال الشرقي من شيحان لمسافة ٢٥ دقيقة من المسير، ويقول عنها "ربما تكون أكثر الأماكن التي رأيناها فقراً، وإطماساً للمعالم، حيث إنها مستوية كلها مع الأرض تماماً". كما واصل سيره شرقا لمدة سبعين دقيقة أخرى، فوصل إحدى الخراب التي تحاذي محطة الحجاج، والتي هي مجرد قلعة ذات أصل إسلامي على ما يبدو، وهناك بقايا مدينة تعود إلى وقت أقدم من تاريخ القلعة[٥٥].

أما السير أليل كركبرايد الذي أقام في الكرك ما بين ١٩١٨-١٩٢٠، كضابط إدارة بريطانية لمنطقة الكرك قبل وصول الأمير عبدالله بن الحسين إلى شرقي الأردن، وتأسيس الإمارة سنة ١٩٢١م، فأعطى أليك كركبرايد معلومات مهمة عن الكرك، واصفاً الحديث والقديم للكرك، قال: وأشيدت مدينة الكرك الحديثة في أحضان عش القلعة القديمة، ويمكن لمن يقف على أسوارها يتنفس هواءً نقياً، وأن يرى الأغوار والسلسلة الجبلية حتى البحر الميت وجبال جنوب فلسطين حتى القدس التي يمكن رؤية انعكاسات أشعة الشمس على نوافذها في الصباح، وبالعين المجردة"[٥٦].

٥٤- المرجع نفسه، ص١٢٤،١٢٣.

٥٥- المرجع نفسه، ص١٢٤.

٥٦- أليك كركبرايد، خشخشة الأشواك، ترجمة أحمد عويدى العبادي، دار النفائس، ط١، المفرق، الأردن، ١٩٨٧م، ص٣٠-٣١.

ثالثاً: الحياة السياسية والإدارية :

لم تهتم كتب الجغرافية العربية بالجانب السياسي للكرك، وإن كانت هناك بعض الإشارات هنا وهناك وهي قليلة جداً، ولكن منذ البداية ذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم إشارة إلى وقعة مؤتة بين المسلمين والروم سنة ٨هـ، وذكر مؤتة بأنها "تضم قبري جعفر الطيار وعبد الله بن رواحة"(٥٧).

أما البكري في كتابه معجم ما استعجم، فذكر أيضاً أحداث معركة مؤتة سنة ٨هـ، وأن المسلمين التقوا الروم في قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء، ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة(٥٨).

كما ذكر شيخ الربوة (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" الكرك في زمنه بأنها: "مملكة الكرك" وذكر أن من جند الكرك الشوبك، وأن حصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم، ويتسلمه نائب مأمون عندهم"(٥٩).

وأشار كذلك أبو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) إلى موقعة مؤتة أيضاً، وذكر أن بها قبر جعفر الطيار، وأصحابه رضي الله عنهم(٦٠).

أما ابن فضل الله العمري (٧٢٧هـ/١٣٤٨م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، فقد ذكر استيلاء الفرنج (الصليبين) على الكرك، حتى فتحت في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب(٦١).

٥٧- المقدسي، مصدر سابق، ص ١٣٦، ١٥١.
٥٨- البكري، مصدر سابق، ص.
٥٩ – شيخ الربوة، مصدر سابق، ص٣٢٩.
٦٠- أبو الفداء، مصدر سابق، ص٣٢٩.
٦١- ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، ص٣٣٠.

ويشير الحميري (ت ق ٨هـ/ق١٤م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى الكرك، بأن حصنها (قلعتها) استعمله النصارى (الفرنج) الصليبيون واستخدموه كمعقل لهم، يقطعون من خلاله الطريق على المسلمين في البر، قال: وهو أعظم حصون النصارى معترض في طريق الحجاز ... ونازله صلاح الدين بعساكره وضيق عليه وطال حصاره له، وقال: وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب ... كما أشار الحميري إلى أنه في زمن السلطان العادل سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أيوب كانت خزائن أموال الدولة بهذا المعقل (القلعة)[٦٢].

وأشار ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" إلى الكرك قال: هي مملكة بمفردها... ولم تكن فتحت عنوة قط، وإنما فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وكانت بيد البرنس أرناط وكان يتعرض إلى حجاج بيت الله الحرام[٦٣].

وذكر ابن شاهين أيضًا أن الملك صلاح الدين بن أيوب عندما افتتح عكا من الصليبين حمل قفلها بمفتاحه وهو حمل فرس إلى سجن قلعة الكرك وقال: "وهو بها الآن من العجائب"[٦٤].

وعند ذكره لمراكز الأبراج التي تعنى ببريد الحمام التي تربط بين بلبيس وسلطنة مصر والكرك قال: بلبيس ثم الصالحية، ثم قطب، ثم الواردة، ثم غزة، وإلى القدس الشريف وإلى نابلس وإلى الخليل عليه السلام ثم الصافية والكرك"[٦٥].

٦٢- الحميري، مصدر سابق، ص٣٣١-٣٣٢.

٦٣- ابن شاهين الظاهري، مصدر سابق، ص٤٣.

٦٤- المصدر نفسه، ص٤٤.

٦٥- المصدر نفسه، ص١١٧.

ويشير ابن شاهين إلى أصحاب الوظائف في الكرك في أيامه (ق ٩ هـ/ق١٥م) في زمن المماليك، قال: "وكان بها قديما أمراء وأجناد حلقة والآن فيها حاجبان، وقاضيان، وكاتب سر، وناظر جيش، ونقيب جيش، ومحتسب، ومتولي، ونائب قلعة، وأمير عشرينات، وبعض أجناد الحلقة، وبحرية، وغلمان سلطانية أصحاب نوب، وأمير عربان له إمرة بالكرك، وكانت نيابة الكرك لا يتولاها إلا أتابك العساكر المنصورة، أو هو نظيره... وكانت نيابة الكرك متحصلها في كل شهر قريب من عشرة آلاف مثقال ذهب"(٦٦).

أما الإشارات السياسية عند الرحالة العرب في كتب رحلاتهم فيذكر ابن بطوطة في سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، بأنه بهذا الحصن (الكرك) يتحصن الملوك، وإليه يلجئون في النوائب وله لجأ الملك الناصر؛ لأنه ولي الملك وهو صغير السن، فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج، فلما وصل عقبة أيلة لجأ إلى الحصن وأقام فيه أعواماً إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه الممالك ... وكان قد ولي الملك في تلك الفترة بيبرس الششنكير، وهو أمير الطعام، وتسمى بالملك المظفر ... فقصد الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس إلى الصحراء فتبعه العساكر، وقبض وحبس في جب حتى مات جوعاً" (٦٧).

أما الرحالة الأجنبي بيركهارت الذي زار الكرك في عام ١٨١٢م فقد تعرض في رحلته إلى وصف النزاعات القبلية والمظاهر الاجتماعية السائدة في الكرك، فالعلاقات القائمة بين القبائل قائمة على القوة والتحالفات التي تظهر بين الحين والآخر للحد من شوكة القبائل، وخاصة ما

٦٦- المصدر نفسه، ص١٣٢.
٦٧- ابن بطوطة، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٤-٣٤٦.

حصل مع قبيلة العمر، حيث تحالف شيخ الكرك مع قبيلة الحويطات لإقصاء قبيلة العمر من حول المدينة، وتحالفت العمر مع قبيلة العدوان للعودة مجددا إلى المنطقة.

كما إن غارات البدو لا تنقطع من جميع الجهات، مثل غارة قبيلة الرولة على مضارب عشائر المسيحية مشرق الكرك، وغارات الترابين على المناطق المطلة على البحر الميت، وكانت النزاعات تظهر أحيانًا؛ بسبب اقتسام مناطق الرعي، أو الامتناع عن دفع الأتاوى أو زيادتها، وكان اللصوص وقطاع الطرق يقومون بأعمال السلب والنهب، لذلك سعى أهل الكرك على تربية أبنائهم على الفروسية، واستعمال السلاح منذ الصغر، وامتلاك البندقية واقتناء الجياد أمران ضروريان[٦٨].

ويشير بيركهارت إلى أن النفوذ الوهابي كان قد وصل إلى الكرك سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، ويذكر أن العلاقة كانت قائمة على نشر مبادئ الدعوة الوهابية، وجباية الضرائب من أهل المنطقة، وكان الوهابيين قد وطدوا علاقتهم مع الشيوخ المحليين،منهم شيخ الكرك الذي نصبوه أميراً للبدو من دمشق ولغاية البحر الأحمر[٦٩].

ثم أصبحت الكرك من المناطق التابعة لولاية الشام العثمانية، وعمل الوالي سليمان باشا العادل التابع للسلطة العثمانية على إنهاء النفوذ الوهابي في جنوب سوريا، بعد أن وصلوا إلى قرية المزيريب على بعد ١٠٣ كم جنوب دمشق [٧٠].وقد استمرت الكرك في تبعيتها لولاية الشام حتى سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. عندما خضعت للحكم المصري [٧١].

٦٨- بيركهارت، رحلات بيركهارت، ج٢، ص١٠٥.
٦٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧.
٧٠- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧.
٧١- محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحديث)، ص٥١.

أما أليك كركبرايد الذي أقام في الكرك من ١٩١٨-١٩٢٠م كضابط إداري بريطاني لمنطقة الكرك، فقد أشار إلى قبائل الكرك بأنها لم تخضع بشكل كامل لسلطة الأتراك من قبل، مشيراً إلى أن الكرك تتميز بعدد من الخصائص فالكرك تخلو من الطرق المعبدة، والهواتف، واللاسلكي"[٧٢].

رابعًا: الحياة الاقتصادية:

تشير كتب الجغرافية العربية إلى بعض النشاطات الاقتصادية في منطقة الكرك، فهذا المقدسي (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) ذكر في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" منطقة الكرك فأشار إلى مآب بأنها كثيرة القرى واللوز والأعناب [٧٣].

أما ابن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، فأشار في كتابه " بسط الأرض" إلى تجارة أهل الكرك مع البحر الأحمر وخاصة النصارى منهم؛ إذ قال: إن أهل الكرك والشوبك كانوا يبادلون الزبيب والزيت والزيتون بالسمك المقدّد مع أهل جزائر الغول الواقعة أسفل شعبة خليج العقبة[٧٤].

وذكر أبو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) في كتابه "تقويم البلدان"، جانباً من نشاط أهل الكرك الاقتصادي قال: وتحت الكرك وادٍ فيه حمّام وبساتين كثيرة وفواكه مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك"[٧٥].

٧٢- أليك كركبرايد، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

٧٣- المقدسي، مصدر سابق، ص١٣٦، ١٥١.

٧٤- ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص٣٢٨.

٧٥- أبو الفداء، مصدر سابق، ص٣٢٩.

وأشار الحميري (ت ق ٨هـ/١٤م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى النشاط التجاري مع منطقة الكرك مشيراً إلى أنه على الرغم من الحروب بين المسلمين والصليبين إلا إن الحركة التجارية كانت تسير على خير ما يرام قال: "ومع ذلك فالقوافل تمر من مصر إلى بلاد الفرنج (الصليبين) إلى دمشق غير منقطعة، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك، وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحد منهم ولا يتعرض له، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمن على غاية، وتجار النصارى أيضًا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعتهم والاتفاق بينهم في ذلك والاعتدال في جمع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"(٧٦).

ثم هناك إشارة اقتصادية في بعض كتب الرحلة العربية لمنطقة الكرك ذلك أن ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ذكر منطقة اللجون من أعمال الكرك من حيث وجود الماء فيها، قال: "ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري"(٧٧)، الذي من شأنه أن يستخدم في الزراعة.

وفي رحلة البلوي الذي مرَّ بالكرك سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م والذي وصف الكرك بقطعة أدبية مشوقة، فذكر ثمارها قال: والعجب كل العجب أنها على بعد مرقاها، وسمو مرتقاها، قد انبعث في أعلاها الثمار، وتفجرت منها العيون والأنهار، فكلما هب فيها النسيم غردت الأطيار"(٧٨). كما عنيت كتب الرحلة الأجنبية بذكر نشاطات سكان الكرك الاقتصادية، فيذكر الرحالة الألماني سيتزن (Setzen) الذي تجول في الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م وزار قرى الكرك العامرة، ووصف طبيعة المنطقة ومصادر المياه وأنماط الزراعة السائدة.. وأشار إلى سكان الغور بأنهم

٧٦- الحميري، مصدر سابق، ص٣٣١-٣٣٢.

٧٧- ابن بطوطة، ج١، مصدر سابق، ص٣٤٤-٣٤٦

٧٨- البلوي، مصدر سابق، ص٣٣٥.

يعتمدون على الزراعة وأن من أهم المزروعات لديهم النيلة التي يبيعونها في دامية، إضافة إلى أنماط الزراعات التقليدية من الأشجار والحبوب[٧٩].

وأشار سيتزن إلى القبائل البدوية المقيمة في الكرك قد تضطر إلى الانتقال إلى القدس والخليل للبحث عن مراعٍ خصبة لجمالهم ومواشيهم، ويقول: "وهم لا يجدون صعوبة في هذا الأمر، ولا يدفعون مقابلاً لذلك"[٨٠]. ويضيف سيتزن: "بالإضافة إلى تربية المواشي هناك الكثير من المزروعات كالأشجار المثمرة والحبوب والبقوليات التي يصدر الفائض منها إلى الخليل والقدس ودمشق، ويتم استبدالها بالألبسة والمنسوجات والصابون، والدخان (التتباك)، كما يتم جلب المنسوجات والعباءات والعُقُل مندمشق، كما شاهد سيتزن سكان الغور يقومون بجمع الملحمن الساحل الشرقي للبحر الميت والاتجار به[٨١].وبالمجمل وصف منطقة الكرك بأنها غنية حيث قال: "وأن مؤاب دائما هي أرض غنية"[٨٢].

أما الرحالة بيركهارت الذي زار الكرك في عام ١٨١٢م، فأشار إلى الكرك بأنه يوجد بها ينابيع غزيرة المياه، أشهرها عين سارة ... وذكر أوديتها الخصبة [٨٣]. معرجًا على منطقة الغور التابعة للكرك، مشيرًا إلى صلاحية هذه المنطقة للزراعة في الأجزاء الجنوبية من الغور[٨٤].

وعندما زار بيركهارت قرية كثربا من أعمال الكرك ذكر أنه مر بعين الفرنج، وعين ترعين، وقال: لها بساتين كثيرة أكثرها من أشجار التين الضخمة، كما ذكر قرية العراق القريبة من كثربا،

٧٩- انظر: محمد سالم الطراونة، مرجع سابق، ص٤٢.
٨٠- المرجع نفسه، ص٤٢.
٨١- المرجع نفسه، ص٤٣.
٨٢- المرجع نفسه، ص٤٤.
٨٣- بيركهارت، مرجع سابق، ج٢، ص١١٢.
٨٤- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٢.

وأشار إلى وجود زراعة الحبوب والأشجار المثمرة وعذوبة ماء الينابيع في قرية العراق، وأشار إلى الفواكه الجيدة فيها[٨٥].

وعند ذكر بيركهارت لقرية خنزيرة أشار إلى أنها منطقة خصبة وفيها الكثير من الجنائن التي تروى بمياه الينابيع، وأن حياة الفلاحين فيها أحسن من حياة البدو[٨٦].

ويشر بيركهارت إلى أن الغالبية من سكان الكرك يعتمدون على تربية المواشي والزراعة، وبعض الحرف المحددة كالحدادة، وصناعة الأحذية، وصياغة الفضة[٨٧].

وذكر بيركهارت أن هناك تبادلاً تجاريًّا مع القدس، حيث يبيع أهل الكرك الأغنام والبغال والجلود والصوف ويشترون البن، والأرز والتبغ والأثاث المنزلي، وأشار إلى أن المسيطرين على التجارة تجار الخليل، فلهم حوانيت في مدينة الكرك، وتجري التجارة بينهم بالمقايضة، ويقدر قيمة كل شيء بالحنطة، المادة الرئيسة في التبادل التجاري بينهم[٨٨]. ويستغل الكركيون قدوم قافلة الحج (المحمل الشامي) لبيع الميرة من جميع الأصناف للحجاج في منطقة القطرانة [٨٩]. كما توجد داخل بيوت أهل الكرك خزانات قمح ترابية تسمى (كواري) [٩٠]. ويشير بيركهارت إلى منتجات البدو كالسمن واللبن، ولكنه ذكر بأن البدو يعتبرون بيع السمنواللبن سُبّة ونقيصة، لا يقوم عليها إلا أراذل القوم، رغم الفقر الشديد والعوز [٩١].

٨٥- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٧.
٨٦- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٧.
٨٧- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
٨٨- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٠-١١١.
٨٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
٩٠- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
٩١- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.

وعندما زار الرحالة الأمريكي وليم فرانسيس لينش المنطقة في عام ١٨٤٨م، زار قرية المزرعة في غور المزرعة من أعمال الكرك، وذكر أن سكانها يزرعون الذرة ونبات التبغ وبعض النيلة[٩٢]. وعند صعود وليم لينش في وادي الكرك شاهد قطع أراض مزروعة بالحبوب، وأشجار الزيتون"[٩٣]. وذكر أن بعثته قد حصلوا على كمية من القمح، ذلك أنهم أخبروه أن أهل هذه القرية لم يفيدوا كثيراً من مزروعاتهم خلال السنين السبعة السابقة نتيجة الجراد والرياح الشرقية[٩٤].

وذكر لينش عند تجواله في مدينة الكرك أنه وجد دكاناً فيه قماش موسلين من صنع إنجلترا، وثمار مشمش مجففة [٩٥].

ويشير الرحالة هـ.ب. تريسترام الذي زار الكرك في عام ١٨٧٢م، إلى أن أهل الكرك يزرعون قاعدة وادي الكرك زيتوناً وتيناً ورماناً وعنباً وبعض البقع من الحنطة. وقال: "وتوقفنا على رصيف شكلته فتحة الوادي، حيث تتبثق منه نبعة ماء جميلة تتساب وسط الأعشاب [٩٦].

وذكر تريسترام وجود معاصر العنب المنحوتة في الصخر في المنطقة كدليل على زراعة العنب في الكرك [٩٧].

وعند زيارته منطقة الرّبة من أعمال الكرك أشار إلى زراعة الحبوب حول منطقة الرّبة، فذكر أنه شاهد بعض البقع المحروثة هنا وهناك وهي مبذورة بالحبوب، أما بقية الأرض فتعج

٩٢- دائرة الثقافة والفنون، رحلات في الأردن وفلسطين، ص٩١.

٩٣- المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

٩٤- المرجع نفسه، ص٩٥.

٩٥- المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

٩٦- هـ.ب. تريسترام، المرجع نفسه، ص٧٥، ٧٦.

٩٧- المرجع نفسه، ص١٠٣.

بالأعشاب، وذكر تريسترام أن الناس يتبعون نظاماً زراعيًّا في تلك الأراضي قال: وهناك وجدنا أن الناس يزرعون جزءًا من الأرض بغلّةٍ واحدة ويتركون الباقي للراحة ثم يتركون الموقع الذي زرعوه مدة ثلاث سنوات أو أربعة دونما زراعة، حيث يستغلون خلالها بقعا أخرى [٩٨]. كما أشار إلى كروم شيحان من أعمال الكرك، والتي تغطي عدداً من الهكتارات [٩٩].

٩٨- المرجع نفسه، ص١٢١ ،١٢٢.

٩٩- المرجع نفسه، ص١٢٢.

خامسًا: الحياة الاجتماعية:

أشار ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في كتابه "بسط الأرض" إلى وجود النصارى في الكرك وتجارتهم مع البحر الأحمر[١٠٠]. وأكد هذا فيما بعد ابن فضل الله العمري (ت٧٢٧هـ/١٣٤٨م). في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" إنقال: "كان ديراً (حصن الكرك) يديره الرهبان ثم كثروا فكبروا بناءه، وكثروا أبناءه، وآوى إليهم أناس من مجاوريهم النصارى، فقامت لهم به أسواق .."[١٠١]. وبذلك، فإن كتب الجغرافية العربية لم تعن كثيراً بالحياة الاجتماعية سوى هذه الإشارات النادرة عن سكان الكرك منذ ق ٧هـ/١٢م.

أما في كتب الرحلة العربية، فإن ابن بطوطة أشار في رحلته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، أنه مرَّ بالكرك مرافقاً للركب الشامي المتوجه إلى الحج في شوال من سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وذكر أن الركب الشامي (ركب الحج الشامي) أقام خارج الكرك أربع أيام بموضع يقال له الثنية، حيث "تجهزوا الدخول البريّة"[١٠٢].

كما ذكر صلاح الدين الصفدي في رحلته للحج سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤، قال: "ثم يرحل (يقصد ركب الحجاج) إلى الكرك، فيأخذ في خمس مراحل، ويقيم في ظاهره على مكان يعرف بالثنية ثلاثة أيام أو أربعة"[١٠٣]. وهكذا فإن كتب الرحلة العربية اعتنت بذكر ركب الحمل الشامي للحج المارّ بالكرك ومناطقها لأهميتها على طريق الحج الشامي للحجاز والديار المقدسة.

١٠٠- ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص٣٢٨.

١٠١- ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، ص٢١٢-٢١٣.

١٠٢- ابن بطوطة، مصدر سابق، ج١، ص٣٤٤-٣٤٦.

١٠٣- انظر: الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٥٧

أما كتب الرحلة الأجنبية، فقد اعتنت عناية خاصة بالحياة الاجتماعية في الكرك، فسجل الرحالة الأجانب في رحلاتهم مشاهدات لمجتمع الكرك، فهذا الرحالة الألماني سيتزن، زار الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م، فوصف ملامح الحياة وأحوال السكان الاجتماعية، ففي وصفه للأحوال السكانية تناول وصف مدينة الكرك والقرى العامرة، ومنها كثربا، وخنزع، والعراق، وبعض البيوت المنتشرة بين الخرب، في منطقة الرَّبة، والبيوت المبنية من القصب في غور الصافي وغور المزرعة[١٠٤]، أما بقية السكان فيذكر أنهم يسكنون الخيام خارج أماكن العمران، ولعل سيتزن يشير إلى نمط من الحياة السائدة آنذاك، وهي هجرة السكن من القرى والانتقال إلى حياة البداوة طلباً للكلأ لمواشيهم، حيث أن زيارته كانت في فصل الربيع، إذ اعتاد السكان مغادرة قراهم والإقامة في بيوت الشعر في هذا الفصل بالذات[١٠٥].

وتناول سيتزن حياة البداوة والقبائل التي مرَّ بمضاربها، فقد ذكر أنه مرَّ بمضارب قبيلة العمر وشاهد مضارب بني حميدة، وعشيرة الحدادين، ولاحظ أن التوزيع القبلي على الأرض قليل جداً، حيث يقدّر أن نسبة الاستيطان لكل٤ميل نسمة واحدة، كما لاحظ وجود عدد كبير من بيوت الشعر منتشرة في الغور تقدر ب ٧٠-٨٠ بيتاً للمسيحيين و١٢٠ بيتاً للمسلمين، وأنهم في هذه المنطقة يتقاسمون ملكية الطواحين الأربعة الموجودة في نهاية وادي الكرك قبل مصبه في البحر الميت[١٠٦].

وقدر سيتزن عدد المسيحيين بالكرك ب ٤٠٠ رجل وعدد المسلمين ٧٠٠ رجل، ثم يذكر سيتزن أن جميع قرة كثربا والعراق وخنزيرا هم من المسلمين، ويعطى سيتزن فكرة بائسة عن سكان

١٠٤- انظر: محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحيث)، ص٢٠٤

١٠٥- الطراونة، مرجع سابق، ص٤١.

١٠٦- المرجع نفسه، ص٤٢.

الغور، ويقول إنهم يسكنون بيوتاً من القصب، وهم لا يملكون ثروة حيوانية بل يعتمدون على الزراعة[١٠٧]، كما شاهد سيتزن قسماً من قبيلة العمر مخيمة بالقرب من مدينة الكرك[١٠٨].

ووصف سيتزن مجتمع الكرك بالكرم والسخاء، وأنهم يتميزون بعلاقات طيبة مع بعضهم البعض، وأنهم يحترمون الضيف، ويقدمون له الطعام والقهوة العربية، ويذكر أن أهل الكرك يلبسون العباءات والملابس الطويلة ذات الأكمام الفضفاضة والمناديل البيضاء، التي يعبر عنها بالإشار الوهابي، ويقدر قيمة المهر لأهل العروس بحوالي ١٠٠٠ قرش إضافة إلى الهدايا[١٠٩].

وعندما زار الرحالة بيركهارت الكرك ما بين ٤تموز –٦ آب ١٨١٢م، ذكر قرية كثربا من أعمال الكرك بأنها تضم حوالي ثمانين بيتاً، وكثير من أهلها يعيشون في بيوت شعر منصوبة في الساحات المكشوفة الواقعة بين بيوت القرية، كما وصف كرم أهل قرية العراق حين كانوا يقدمون له ولفريقه الذبائح والفواكه الجيدة[١١٠].

وذكر بيركهارت قرية خنزيرة بأنها أكبر من قريتي العراق وكثربا، ويذكر أن شيخ الكرك كان له بيت وزوجة في تلك القرية، وأنه أثناء مرورهم بالقرية عقد جلسة محاكمة لفض المنازعات بين الفلاحين حول قضايا مالية وامتلاك مشترك للخيول العربية، مشيراًإلى أن حياة الفلاحين فيها أحسن قليلاً من حياة البدو[١١١].

١٠٧- المرجع نفسه، ص٤٢.

١٠٨- المرجع نفسه، ص٤٢.

١٠٩- المرجع نفسه، ص٤٣.

١١٠- رحلات بيركهارت، ج٢، ص١١٧، وانظر: الطراونة، مرجع سابق، ص٤٤.

١١١- بيركهارت، المرجع نفسه، ج٢، ص١١٧.

ويشير بيركهارت إلى سيادة النظام القبلي الذي يستند إلى سلطة الشيخ المدعومة بقوة الفرسان، وكان هذا النظام قائماً سواء في القبائل التي تعيش حياة البداوة أو سكان القرى والتجمعات السكانية، وبالرغم من تباين الحالتين فقد خضعت الكرك لسلطة شيخ الكرك، الذي كان يقيم في مدينة الكرك، وتتبع قرى كثربا وعراق وخنزيرة لسلطته مع وجود شيخ مستقل لكل قرية، ولم يذكر بيركهارت أسماء هؤلاء الشيوخ وإلى أي القبائل ينتمون[١١٢].

أما القبائل العربية التي ورد ذكرها في رحلة بيركهارت فهي: عرب العمر، والحمايدة، والغوارنة، كما أشار إلى عشيرتي الضمور وبني نعيم[١١٣]. وذكر انتشار قبيلة العمرو حول مدينة الكرك وانتشار عرب الحمايدة في مناطق شمال الكرك، كما ذكر بيركهارت أن أهالي الكرك في البادية والحضر كانوا يدفعون إتاوة سنوية لشيخ الكرك، أما علاقة سكان الكرك مع القبائل الأخرى مثل الحويطات وبني صخر، فقد كانت قائمة على دفع الإتاوة، وتقديم الهدايا، للمحافظة على العلاقات الحسنة منعاً للتعدي والغزو.[١١٤].

وذكر بيركهارت سكان الكرك بأنها مأهولة بحوالي ٤٠٠ عائلة مسلمة و١٥٠ عائلة مسيحية، وقال: إن المسلمين الساكنين بالكرك هم من أصول من جميع أنحاء سورية الجنوبية، وبخاصة من الخليل ونابلس، في حين جاء القسم الأكبر من المسيحيين من القدس وبيت لحم وبيت جالا، كما يشير بيركهارت إلى تمتع المسيحيين بالحقوق والواجبات نفسها مع المسلمين، وهم متحررون من جميع الضرائب الابتزازية، وأنهم كانوا على علاقة طيبة مع شيخ الكرك، ويدعمون سلطته ويؤيدونه[١١٥].

١١٢- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
١١٣- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٦.
١١٤- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
١١٥- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٥.

ويصف بيركهارت بيوت أهل الكرك في مدينة الكرك، قال: وأما البيوت غالباً ما تكون طبقة واحدة، وسقف المنزل مدعوم بأقواس (القناطر)، حيث توجد فروع الأشجار الغليظة وطبقة رفيعة من نبات الآسل أو السمار، وتوجد داخل البيوت خزانات قمح ترابية تسمى (كواري) ولا يوجد للغرف فتحات سوى الأبواب[١١٦].

كما وصف بيركهارت النزاعات القبلية والمظاهر الاجتماعية السائدة، من حيث العلاقات وأنماط العادات والتقاليد في الكرك، فالعلاقات بين القبائل قائمة على القوة والتحالفات التي تظهر بين الحين والآخر للحد من شوكة القبائل وخاصة ما حصل مع قبيلة العمر، حيث تحالف شيخ الكرك مع قبيلة الحويطات لإقصاء قبيلة العمر من حول الكرك[١١٧].

وأشار بيركهارت إلى عادة الكرم عند أبناء الكرك سواء في البادية أو الحضر، والإصرار على إكرام الضيف والمبالغة في ذلك، واعتبر بيع السمن واللبن سُبَّة ونقيصة لا يقدم عليها إلا أراذل القوم، رغم فقرهم الشديد والعوز[١١٨].

وذكر بيركهارت بعض العادات في الزواج عند أهل الكرك بأنه يجري بين أبناء كل طائفة سواء في البادية أو الحضر، ويتراوح المهر من ٦٠٠-٨٠٠ قرش، والذي لا يملك المهر يضطر لخدمة والد العروس مدة تزيد عن خمس سنوات، كعبد أو خادم، حيث يقوم بكل الأعمال الوضيعة مقابل الموافقة على الزواج والإعفاء من دفع المهر[١١٩].

١١٦- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.
١١٧- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٥.
١١٨- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.
١١٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.

ويشير بيركهارت إلى عدم اهتمام أهل المنطقة بزوجاتهم والتخلي عن الزوجة في حال المرض، وعدم شراء الملابس لها، مما يضطرها إلى بيع بعض المحاصيل أو المنتجات الحيوانية والتصرف بها، وتحرم النساء من الميراث، ولا يختلف المسيحيون عن المسلمين في هذا التعامل، ويلجأ السكان في فض المنازعات إلى الشيخ الذي يصدر أحكامه التي قلما يخرج أحد عنها(١٢٠).

أما موضوع التدين وممارسة العبادات، فأشار بيركهارت إلى أنه لا تحظى الواجبات الدينية بكل الاهتمام سواء عند المسلمين أو المسيحيين، الذي لا يعرفون مراسم الصلاة باللغة اليونانيّة، وقليل منهم الذي يذهب إلى الكنيسة(١٢١)، وكانت الكرك مقر المطران اليوناني الذي يقيم عادة في بيت المقدس، وتدعى الأسقفية أبرشية البتراء(١٢٢).

أما الرحالة وليم فرانسيس لينش قائد البعثة الأمريكية في المنطقة لدراسة البحر الميت ومحيطه، فقد زار المنطقة عام ١٨٤٨م، ومن جملة ما ذكره عن الكرك وصفه للمكونات الاجتماعية؛ إذ قال: "حدثنا جمعة خميس أن هناك شيخين في الكرك أحدهما مسيحي ويستطيع أن يحشد ٢٥٠ من حملة البنادق، وشيخ مسلم أكثر رجاله خيالة فرسان وهم أكثر عددًا بكثير، وأن الشيخ المسيحي يتبع الشيخ المسلم تبعية كاملة"(١٢٣). دون أن يذكر اسميهما.

وذكر ضيافة أهل غور المزرعة لبعثته قال: "إن شخصًا أحضر لهم اللبن والحليب، وكمية من طحين الدوم الجاف فكان لذيذاً جداً" (١٢٤).

١٢٠- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.

١٢١- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٩.

١٢٢- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠١.

١٢٣- دائرة الثقافة والفنون، مرجع سابق، ص٩٠.

١٢٤- المرجع نفسه، ص٩١.

وعند وصوله إلى الكرك ذكر وليم لينش قوله:" وبلغنا بيوت البلدة (الكرك) وسرنا إلى المضافة التي كانت مدرسة للمسيحيين في الوقت نفسه، ويشير إلى أنه كان يأمل أن يذبحوا لهم شاة، ولكن يذكر أنهم حصلوا على بعض البيض، وكان غذاؤهم مكوناً من ثلاث بيضات لكل شخص، وأشار إلى بيوت الكرك بأنها ليس لها نوافذ، وذكر أن في الكرك ٣٠٠ أسرة ثلاثة أرباعها من المسيحيين؛ لأن قبيلة الكركية القوية تقيم في مضارب لها على بعد مسافة قصيرة من أسوار القلعة، وقد بلغ من كراهة بعض القوم للإقامة في بيت الحجر[١٢٥].

كما ذكر وليم لينش أن البعض من الكركية ينصبون بيوت الشعر في ساحات المنازل الخالية، قال: في الكرك قرى معظم الرجال يلبسون معاطف الفراء، وبينما ترتدي النساء الثياب الغامقة الألوان، ولم تكن النساء المسيحيات يخفين وجوههن التي لاحظنا أنها موشومة. وأشار وليم لينش إلى أن الخوري أخذهم إلى كنيسته الصغيرة وهي غرفة واطئة ومعتمة، وفيها عمودان غير كاملين جيء بهما أصلا من القلعة .. وذكر أنه بمقدور الكركية أن يحشدوا ٧٠٠ رجل مقاتل[١٢٦]. وأخبره شيخ المسيحية المدعو عبدالله أن عدد المسيحيين يتراوح بين ٩٠٠ إلى ألف شخص، يستطيع حشد ٢٠٠ مقاتل[١٢٧].

وفي عام ١٨٧٢م، زار الكرك هـ.ب تريسترام، حيث شاهد أثناء مسيره في وادي الكرك عددًا من بيوت البدو التي ظهرت له من بعيد، وكأنها بقع سوداء في السفوح الجبلية ويعود أكثر هذه البيوت إلى أناس من الكرك، ويخيم القسم الأكبر منهم صيفاً في الجبال ومعهم مواشيهم[١٢٨]

١٢٥- المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

١٢٦- المرجع نفسه، ص٩٦.

١٢٧- المرجع نفسه، ص٩٦.

١٢٨- هـ.ب. تريسترام، رحلات في شرق الأردن، ص٧٥،٧٦

كما زار تريسترام المدرسة المسيحية في الكرك وذكر أن مديرها من أصل يوناني، ووصف بأنه كان شغوفاً بالعلم مفكراً، ولديه الرغبة الحثيثة في إتمام دراسته في إنجلترا .. ووصف مسيحيي الكرك وصلاته بهم قال: "جميع المشتركين ثلاثين رجلاً وامرأة لأداء صلاته معهم، وجميعهم من أتباع الكنيسة الإغريقية، وعلى الرغم من أنهم جهلة إلا أنهم بروتستانتيون في القلب، مما يخص تعاليم الإنجيل، ولديهم معرفة بالحقيقة، ومع هذا فهم متعطشون للمزيد منها"[١٢٩]. كما أشار إلى أن عدد المسيحيين في الكرك يتراوح بين ٨٠٠-١٦٠٠ شخصاً من أصل ٨٠٠٠، بقية سكان الكرك من المسلمين[١٣٠].

وعند مرور تريسترام بالحي الإسلامي في مدينة الكرك وصف البيت الكركي الذي رآه في الكرك، والذي يمثّل نموذجًا لهندسة البناء عند أهل الكرك، فأشار إلى أنه يتم الدخول للبيت الكركي عبر باب خفيض لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام، وهو مقوّس عادة، ومبني من الحجارة الصلبة، أما العتبة فضخمة مأخوذة عادة من حجار بنايات قديمة، ويفتح هذا الباب على ساحة قذرة، فيها عدد من الحجارة، موضوعة عليها روث البقر كي يجف في الشمس ويصير "جلة" تستعمل للوقود، وهو الوقود الوحيد الذي عندهم، لانعدام الأشجار، ويسير تحت هذه الحجارة على أحد الجوانب كميات من اللبن الجاف، ومذود الأغنام والحمير، وهناك باب آخر بارتفاع أربعة أقدام يؤدي إلى الغرفة الرئيسة، وهي غرفة العائلة، وليس في هذه الغرفة نوافذ، أو مداخن، ومسقوفة بعقود متتابعة من الحجارة مع عوارض خشبية ممدودة فوق هذه الأقواس، وتقع نقرة النار في وسط الغرفة، حيث تتكون من حوض الطين على شكل صحن، وهذا هو مكان الخبز والطبخ والنار، ولا

١٢٩- المرجع نفسه، ص٩١،٩٤،١٠٨.

١٣٠- المرجع نفسه، ص٨٥.

منفذ للدخان إلا من خلال الباب، ويفتح على الغرفة عدد من المخازن المظلمة التي تشابه الزنزانات، ويبدو أن بعضها كان أنفاقاً للمدينة القديمة، وبعضها يستخدم مخزنا للعائلة، ولا يوجد أثاث أبداً، يجلس الجميع وينامون على الأرض(١٣١).

ثم قام تريسترام بزيارة للحي المسيحي في الكرك الذي شاهده من الجهة الشمالية من بلدة الكرك زار فيه الكنيسة الإغريقية، وهي كنيسة منيعة مبنية من الحجارة، ولها جزء ثان نصف دائري، وفيها جناح خاص مفصول عن صحنها بالأعمدة، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأعمدة التي تشبه تلك الموجودة في كنيسة نورماية، وهناك بئر في الطرف الغربي منها لا يزال صالحًا، وفيه ماء للشرب والاستعمال، كما شاهد صور القديسين الموجودة في الكنيسة وقال: يحيط بالكنيسة من الخارج سور أنيق متقن البناء، بينما بنيت إلى الغرب منها غرف الكاهن والمدرسة التي هي (المدرسة) بناية مستوية مفروشة بالحصائر، التي تشكل أثاثها الوحيد، وذكر أيضًا أن مجتمع بناء الكنيسية قام بتزويد المدرسة ببعض الكتب والأقلام والدفاتر والمحايات ... وشاهد نسخة إنجيل بالعربية وعليها ختم جمعية الإنجيل، وذكر أن مدير المدرسة يفضل الحصول على نسخ بالعربية، بحيث تكون لها هوامش وشروحات، وهي غير متوفرة لديه، قال: فوعدنا بإرسالها(١٣٢). وأشار تريسترام كذلك إلى أن بعض المسيحيين في الكرك لا يعمّدون أبناءهم في الكنيسة الإغريقية، وإنما يرسلونهم إلى السلط لهذه الغاية حيث تكون وتتواجد هناك إحدى البعثات التبشيرية في إحدى جولاتها هناك(١٣٣).

١٣١- المرجع نفسه، ص٨٥-٨٦.

١٣٢- المرجع نفسه، ص٨٦-٨٧.

١٣٣- المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

ويذكر تريسترام أنه قام بزيارة إلى المجالي في الكرك، وقال: "كان مركزه في وسط المدينة تحيطه ساحة، دخلنا إليها حيث قادنا الطريق إلى عنبر داخل البيت الذي يشكل مجلس المدينة الرسمي، وهناك وجدنا مجموعة من ثلاثين رجلاً يحيطون بنقرة النار بشكل دائري، وهم يدخنون غلاييهم وهم يطلبون الدفء من الجمرات المتّقدة في النقرة، وذلك بسبب برودة الجو"(١٣٤).

كما أشار تريسترام إلى أن عرب بني حميدة يستخدمون منطقة قلعة البلدة القديمة في شيحان كمقابر، وذكر أنه ولدى تجواله بين القبور لفت نظره وجود خصل من جدائل الشعر، موضوعة على القبور الحديثة بينما استأثرت قبور أخرى بنوع من القرابين جاء على شكل عصى ممدودة مع الأعشاب وعليها ضفائر من الشعر أيضًا بينما وضع على أخرى بقايا أسمال بالية من القمصان الخلع ذات الألوان المتباينة، وقدائد الملابس، وقناوي الرعاة(١٣٥).

أما السير أليك كركبرايد ضابط الإدارة البريطاني لمنطقة الكرك ما بين ١٩١٨-١٩٢٠، فوصل ملابس أهل الكرك وتطرّق إلى صلاة النصارى في الكرك في بيت الشعر، قال: "أما من جهة اللباس فلم تدخل إلى أهل الكرك مفسدات الألبسة الغربية آنئذ تلك المفاسد التي عمّت العالم العربي فيما بعد، ونجد أيضا أن العشائر المسيحية تعيش النمط نفسه الذي تعيشه العشائر المسلمة، فقد حضرت صلاة النصارى في بيت من الشعر أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة، ولقد اعتنت بي راهبات الوردية حيث بقيت ملابسي نظيفة وبيتي، وكانت عامة الراهبات عربيات"(١٣٦).

١٣٤- المرجع نفسه، ص١٠٧.

١٣٥- المرجع نفسه، ص١٢٣-١٢٤.

١٣٦- أليك كركبرايد، خشخشة الأشواك، ص٣١.

سادسًا: الخاتمة :

بعد أن تم عرض المعلومات المتوافرة حول الكرك في كتب الجغرافية والرحلة يمكن استخلاص جملة من النتائج:

– أظهرت الدراسة أهمية الكرك عبر التاريخ، وأنها ذات موقع استراتيجي وقوي ومؤثر في الأحداث التاريخية، وذلك لحصانتها ومنعتها، فحظيت باهتمام الدول التي مرّت عليها عبر التاريخ، مروراً بعهدها القديم، والإسلامي، والصليبي، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني، وإلى الآن.

– ذكرت كتب الجغرافية العربية مدينة الكرك، من حيث موقعها من بلاد الشام، وبعض القرى التابعة لها، ودخولها في الإسلام، وذكرت قلعتها، وأشير إليها أنها "قلعة مشهورة وحصينة" فضلاً عن ذكر قرية مؤتة من أعمالها، وما فيها من قبور للصحابة الذين استشهدوا في معركة مؤتة سنة ٨هـ، ثم ذكر منتجاتها الزراعية. والتجارة التي كان لها دور فيها لوقوعها على الطريق التجاري الواصل بين الشام وجزيرة العرب، كما ذكرت بعض كتب الجغرافية مكونات السكان في الكرك من مسلمين ونصارى، وخاصة في الفترة الصليبية، وسيطرة الصليبيين عليها ثم استعادتها زمن صلاح الدّين الأيوبي، وذكر أهمية قرب الكرك من القدس في الأحداث التاريخية بين المسلمين والصليبيين، كما ذكرت بعض الوظائف الإدارية الموجودة في الكرك زمن المماليك، أما أهم المصادر التي تناولت موضوع الكرك فهي: المقدسي في كتابه، أحسن التقاسيم، والبكري في كتابه، معجم ما استعجم، وياقوت الحموي، معجم البلدان، والبغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، والحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، وابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك.

– وأظهرت كتب الرحلة العربية، مثل رحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة البلوي الموسومة ب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ورحلة صلاح الدين الصفدي سنة ٧٧٥هـ/١٣٥٤م، تناولت الكرك من حيث وقوعها على طريق الحج الشمي للحجاز، والإشارة لكثرة القرى التابعة للكرك، والقرب من بيت المقدس، وحصانة المدينة واستعمالها من قبل السلطة كمركز للإدارة في المنطقة.

– أما الكرك في كتب الرحلة الأجنبية، فتبين أن معظم الرحلات كانت بدافع ديني، تم تمويلها من مؤسسات غربية لها ارتباط بأفكار العهد القديم، ومن أهم تلك الرحلات رحلة الألماني سيتزن عام ١٨٠٦م، ورحلة بيركهارت ١٨١٢م، ورحلة وليم لينش ١٨٤٨م، ثم رحلة تريسترام عام 1872م، وإليك كركبرايد ما بين ١٩١٨–١٩٢٠م، لقد فصلت كتب الرحلة الأجنبية، بل توسعت في وصف الكرك ومحيطها، فوصف هؤلاء الرحالة القلعة وصفاً دقيقاً، فضلاً عن وصف سكان الكرك من مسلمين ونصارى، وأعطى بعضهم عدد أسر المسلمين والنصارى في مدينة الكرك، وعاداتهم وتقاليدهم في الكرم الطعام، والزواج والملابس، وما حول الكرك من أودية وعيون وبساتين ومواشي، وقرى، وقبائل تسكن في جوار الكرك، فضلاً عن منتجاتها الزراعية وتجارتها مع الخليل والقدس ودمشق، حتى الخرائب القديمة تم ذكرها في منطقة الكرك، وأعطاها أسماء توراتية كما يعتقدونها في العهد القديم (بيركهارت نموذجاً) كم تم ذكر مناطق الأغوار التابعة للكرك، والحديث عن المكان الجغرافي، والمنتجات الزراعية، وسكان الأغوار، والعلاقات ما بين البادية والحضر في منطقة الكرك، ومن اللافت تركيز بعض الرحالة مثل تريسترام ١٨٧٢م على ذكر تواجد النصارى ومدرستهم وكنيستهم وأحوالهم في الكرك.